قصة قصيرة

من وحي رمضان

درس في الصغر

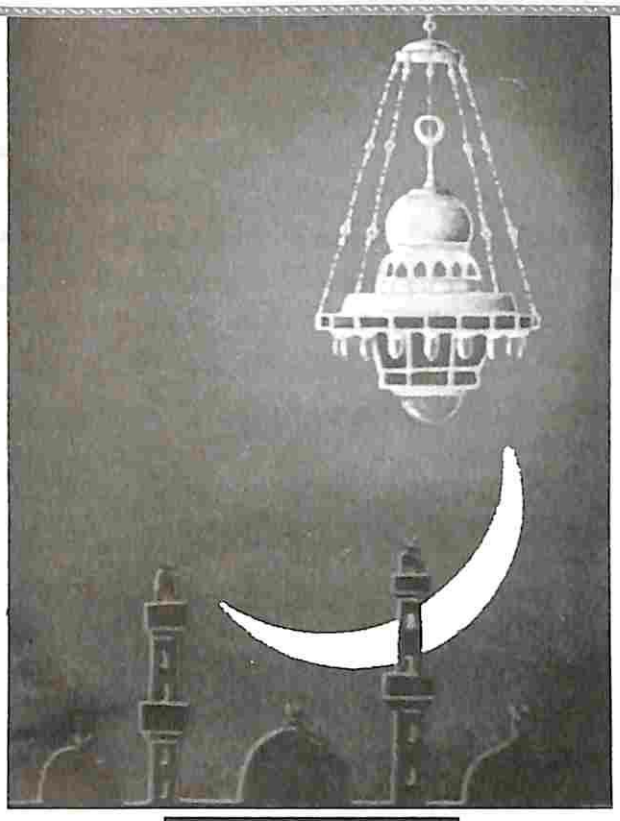

بقلم: حميدة قطب
فرنسا

أقبل رمضان...المدينة الكبيرة استعدت لقدمه... تتبختر في أضواء تتألق هنا وهناك... تنبض بحياة جديدة تنفض عنها ركود زمن روتيني ممل...واجهات الحوانيت الصغيرة والكبيرة تتلألأ بالضوء :

أبيض، أحمر، أصفر برتقالي.... يغمض عيناً ويفتح أخرى في ابتهاج مشرق! ...أكداس من الفاكهة الجافة والحلوى والمكسرات تستعرضها الأعين أمام الأبواب المفتوحة إلى وقت متأخر من الليل .. الفوانيس الملونة ذات الأشكال الهندسية المختلفة تتدلى من فوق وتتراقص مع دفقات الضوء.. الغادون والرائحون في نشاط وبشر تسد عيونهم البضائع تلمع تحت الأنوار المسلطة التي تكسبها رونقاً جذاباً يستهوي النفس، يعبئون الأكياس من تلك البضائع التي طال إليها الشوق!...الأطفال يدورون حول الأنواع الكثيرة المبذولة في رخاء يلتفون حول الآباء يدفعونهم دفعاً إلى الشراء:

– بابا، أريد من هذا.. وهذا.. وهذا.. وذاك.. ولا تنسي الفانوس!

– أمي اشتري لي ذاك – ثم ذاك الأحمر في آخر الصف..ثم....

كان والد أحمد يخطو بخطى وئيدة يقطع الشارع الطويل المكتظ بالناس والعربات والتي تكاد أن تتوقف عن السير من شدة الزحام، في طريقه إلى تلك الحوانيت يشتري للأسرة مؤونتها من حاجة الشهر الكريم. كان يمسك بابنته الصغيرة "سلوى" في يده اليمنى، ويقبض جيداً على يدها الصغيرة في يده، وباليد اليسرى يشد يد ابنه "أحمد" كلما انحرف به السير وسط الزحام خطوات عن والده، وكان أحمد يلهث مسرعاً في مشيته يحاول أن يطاول مشية أبيه الذي يتوقف كل لحظات قليلة يجر ابنته التي تتخلف وراءه وذراعها الصغيرة في يده.. قال أحمد وهو يلتقط أنفاسه المسرعة:

– أبي.. سأصوم معكم!

– كلا يا أحمد.. مازلت صغيراً!

– لم أعد صغيراً يا أبي... لقد أتممت التاسعة منذ شهور!

– نعم، فأنت إذن صغير ما زلت.

– لماذا يصوم أخي حسن ولا أصوم أنا؟!

– حسن أتم عامه الثالث عشر.. هو كبير.. عليه أن يصوم.

– أبي ولكن أريد أن أصوم.. لم أعد صغيراً....

– وأنا أيضاً أصوم يا أبي.. (ينزلق إلى مسامعهم صوت سلوى الرفيع).

– حين نعود يا أبنائي نتحدث معاً في الأمر...اسكتوا الآن لنصل ونشتري قبل أن تغلق الحوانيت.

* * *

في الدار التي دبت فيها حركة نشطة ترتب الأشياء المبعثرة، وتعد السحور الشهي لأول أيام رمضان،

استقبل العائدون بابتسامة مشرقة: الجدة والأم والابن الأكبر الذي بقي في البيت على مضض يستذكر، فلقد اقتربت اختبارات نصف العام!

تحركت الأم الشابة بخطوات مفعمة بالبشر إلى الأحمال الثقيلة ترفعها من أيدي العائدين، وصوت سلوى الرفيع يختلط بصوت أحمد لا يكف عن الحديث يصف ويصف ما رأى هناك؛ وحركة الأرجل الدائبة بينهما وبين الجدة التي ظلت في جلستها، لا تكف كذلك...يريانها الفوانيس الصغيرة بأحجامها المتعددة وبألوانها الجميلة... وتنقل أيديهما قبضة إثر قبضة مما تحمل الأكياس إلى الجدة ثم تعود... ثم ما لبثت أن هدأت الحركة حين التأم الجمع حول مائدة عشاء خفيف، حتى يتمكن الصغار من النوم، ويقطع الكبار بها الساعات إلى أن يحين موعد السحور.

قطع الصمت صوت أحمد يطالب من جديد بحقه في الصوم، ثم تلاه صوت سلوى في ببغائية لطيفة تطالب بما يطالب به أخوها!... كان الوالد يلقي بكل ما في جعبته من أسباب ومحاذير يقنع بها ابنه ليكف عن مطالبته حين دخلت الجدة التي مازالت تتمتع بحيوية دافقة وبثقافة خصبة تدافع عن حق حفيدها، قالت:

– لقد صمت أنت يا هاشم وأنت أصغر منه عمراً... لم تكن قد تعديت الثامنة.. صمت أياماً. ثم السنة التي تلت صمت رمضان بكامله، ثلاثين يوما، ولم تجد كل محاولاتي ومحاولات أبيك في منعك من الصيام؛ وكان الجو حاراً، فلقد كان رمضان يأتي وقتها في الصيف، وكان يوم الصيام طويلا لماذا إذن تحرم ابنك من الصوم والوقت الآن شتاء والنهار قصير.. وهو يتلهف على الصوم... نعم ألا تدعه يجرب.

وقبل أن ينطق لسان أحمد الذي شجعته كلمات جدته ليلح من جديد، كان الوالد يلقي ببقية أسانيده لإقناع ابنه.. قال:

– كان يا أمي زمان غير هذا الزمن.. كانت الحياة كلها أهدأ وأسخى.. وكانت الدراسة أقل مشقة، والسباق المجنون على الدرجات لم يكن يبدأ مبكراً منذ المرحلة الأولى.. وكانت مدرستي بجوار بيتنا فلا أضطر للصحو مبكراً، وكان العمل في كل الإدارات يتأخر ساعة في الصباح مراعاة للصيام.. ولم تكن كذلك أعصاب الناس!

– لكن ذلك كله لا ينفي يا هاشم أن الطفل في زماننا هذا محتاج لأن يمارس مبكراً ما يربطه بدينه ، حتى يستطيع أن يقاوم طوفان الفساد المستشري في كل مكان؛ فإنه لم يتبق للأجيال الصغيرة من محضن يصلهم بدينهم غير بيوتهم.. إني أفضل أن تتركه يجرب.

تدخل حسن.. الابن الأكبر ليقول:

– إن أهم شيء عند أحمد هو السحور!.. ليس الصوم هو الذي يهمه!.. يريد أن يستمتع في السحور فدعوه يستيقظ في السحور!

اندفع أحمد يدافع وقد أغاظته الكلمات التي تتهمه في صدق نيته، اندفع يؤكد أنه سوف يصوم بغير سحور!

أحست الأم بالإهانة التي أصابت ابنها فتدخلت في النقاش الدائر الذي كانت ترقبه في صمت.. قالت تلطف الجو بين ابنيها:

– كلا يا حسن أنا أعرف أحمد وأعرف أنه صادق في رغبته؛ وأعرف أنه يملك عزيمة رائعة رغم صغر سنه.

أكمل الأب قائلاً: سوف نسمح لك يا أحمد بالصيام ولكن بشرط أن توفي بوعدك فلا تخور عزيمتك وتفطر قبل موعد الإفطار... كذلك شرط ألا يعوقك الصوم عن دراستك.

قال أحمد بصوت منفعل يحمل كل ما في قدرته من تأكيد: نعم.. سأفعل.

أردفت الأم قائلة:

– هذا يا بني موكول لضميرك، فهذا الوعد ليس بينك وبيننا ولكن بينك وبين ربك؛ والعهد بين الإنسان وربه أمر عظيم!.. فأنت تستطيع أن تأكل وتشرب طوال اليوم ولا نراك؛ وتستطيع أن تنام في الفصل ولا نشعر بك.. ولكنك لا تستطيع أن تفعل ذلك مع الله لأنه يراك في كل لحظة ويعرف ماذا تفعل وفيم تفكر؛ ولئن فعلت ذلك فلسوف يعلم الله أنك خائر العزيمة؛ وأنك لم تكن صادقاً فيما وعدت!..سكتت الأم هنيهة ترقب أثر حديثها على طفلها ثم ما لبثت أن أردفت قائلة: هل أنت تستطيع حقاً يا أحمد أن تبقى ثابتاً على صيامك حتى إن جعت، إلى أن يحين المغرب؟ إن قدرت على ذلك فإن الله سيرى فيك صدق رغبتك وعزيمتك فيحبك ويدخلك الجنة، وإلا فأنت في حل من الصوم يا بني ولم يفرض الله عليك الصيام بعد.. راجع نفسك ثم قل قرارك قبل أن تنام.

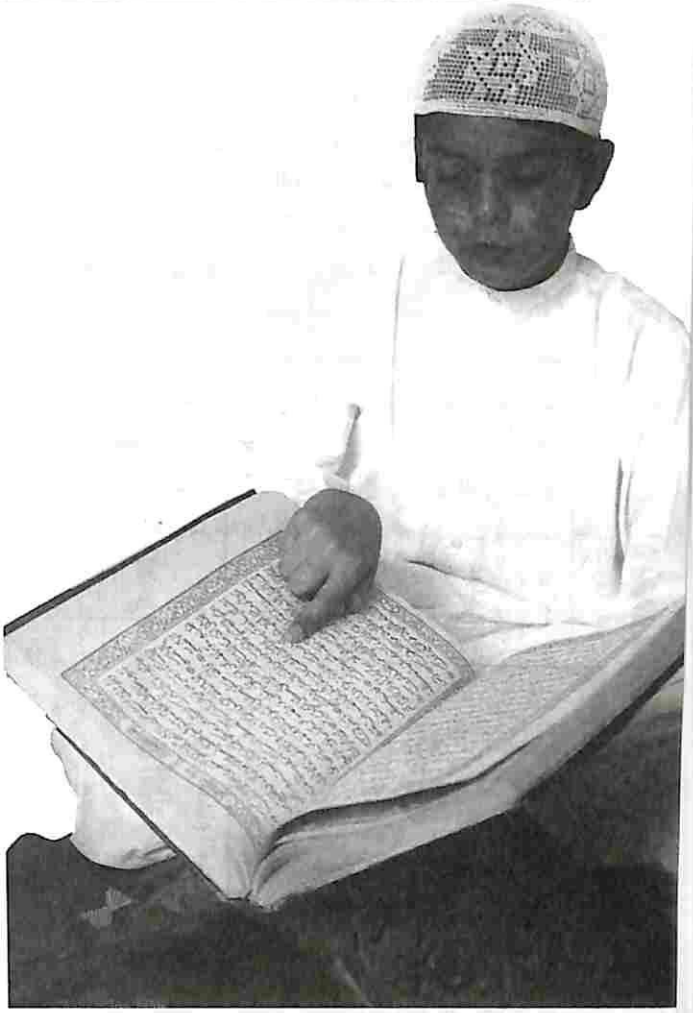

كان أحمد فرحاً بحديث أمه، ولم يكن في حاجة لمراجعة قراره، فهو يعرف رغبته العارمة في الصوم.. إنه صغير، أصغر من حسن.. ولكن سيكون أشد عزماً، فلكم سمع أباه يؤنبه على إهماله لدروسه، ويقول له: إنه يتمنى أن يراه أصلب عوداً وأشد عزماً!

سرح به خياله يحاول أن يرسم صورة لهذه القدرة الهائلة التي ترى كل شيء وتعلم كل شيء وتسمع كل همسة، ويخافها الناس في سرهم وفي جهرهم؛ ولكن خياله ارتد عاجزاً! كثيراً ما سأل أباه عن الله.. وما هي صورته.. أين هو.. كيف يراهم، ويرى كل شيء في لحظة واحدة، كيف يسمع كل كلمة تقال وكل همسة في ذات الوقت؟!.. كان أبوه يجيبه بأن أحداً لا يستطيع أن يعرف شيئاً عن كيفية ذلك.. ولكن الإنسان يعرف جيداً أن الله هو الذي خلقه وخلق الكون كله؛ وأنه خلق للإنسان الأرض بكل ما عليها من رزق، ومن حيوان ونبات؛ وخلق له السماء وما فيها من نجم وقمر وشمس؛ وإن الإنسان عاجز عن أن يخلق شيئاً من ذلك كما أنه عاجز أن يرى الله أو يعرف صورته! قال له مرة: إنني لا أستطيع أن أراك وأنت ابني الصغير إذا كنت في الحجرة المجاورة، فكيف أرى الله في علاه وهو الذي خلقني؟!.. قال له مرة: إن هذه المخلوقات كلها لا بد أن لها خالقاً أوجدها. وإننا كلنا مجتمعين لا نملك أن نوجد نملة ونجعلها تتحرك، إن لم يكن قد خلقها الله من قبل!!

إنه يوقن أن الله يراه ولكنه للأسف، لا يستطيع أن يظل منتبهاً لذلك دوماً! ودهمه سؤال مفاجئ: ترى هل هو مهم إلى حد أن يعتني الله به فيجعله تحت نظره في كل لحظة من لحظات يومه؟!..فحتى أمه التي تحبه كثيراً لا تفعل ذلك!.

وخطر على ذهنه سؤال عابر أجفل منه:" ترى هل يراه الله أيضاً وهو في الحمام عارياً؟.. أحس بالخجل يجتاح كيانه؛ فإنه لا يحب أن يرى نفسه على تلك الصورة.. وقد استغنى منذ سنوات عن أن تدخل أمه معه حمامه، وتولى ذلك لنفسه بنفسه؛ ولم يكن يخطر بباله أن أحداً قط يراه!.. ولكن..هل الله يرى مثل ما يرى الناس؟! وحين لم يهده تفكيره الصغير إلى جواب قرر أن يطرح سؤاله العابر على أبيه...

* * *

في موعد السحور، كان أحمد مستغرقاً في نوم عميق.. وحين نادته أمه ليستيقظ كان رأسه مثقلا بنعاس غامر.. نادته عدة مرات حتى تسلل صوتها إلى سمعه باهتاً غامضاً كالحلم.. قال وهو في نصف وعيه والنوم ثقيل.. ثقيل يخذل كل عضو في جسده: "لماذا تناديني أمي الآن؟ آه لو تتركني أنام.. أنام ولو ساعة!.. ثم .. ثم.. ما لبث الوعي أن تسلل حثيثا إلى رأسه فانتفض جالساً والخدر يغمر أعضاءه.. قال لنفسه: " هل نسيت أنه السحور؟! .. انتصب واقفاً دفعة واحدة وهو يجاهد ليزيح النوم عن عينه، ويرفع بكل وعيه جفنيه الملتصقتين وهو يردد في نفسه " كلا لن أتخاذل.. إن الوعد الذي قطعته على نفسي ليس مع أبي وأمي.. ولكنه مع الله .. الله الذي يراني حتى وأنا نائم ويعلم ما أفكر فيه.. وسوف يراني ويرضى عن فعلي وأنا أقاوم النوم أصحو لأتسحر وأبدأ صيامي".. وحين أتم صحوه ولحق بالجمع على مائدة الطعام كانت فرحة نشيطة تنعش جسمه وكان شعور حلو بالنصر يجوب مشاعره..

* * *

جاء الصباح .. أول صباح .. صحا أحمد نشيطاً رغم نقص ساعات نومه بالنسبة لما اعتاده.. ارتدى ملابسه وانطلق مرحاً إلى حافلة مدرسته.. ترى كم من زملاء فصله سيكون صائماً؟..

كانت حصة الرياضيات هي أول حصص اليوم.. لا بأس فهو متيقظ تماماً... وهو رغم إسقاط وجبة الصباح وأهم ما فيه كوب اللبن بالقهوة فلقد تناول ذلك كله في سحوره.. فهو مفعم بالنشاط ولن يدهمه الجوع.

حين سألهم الأستاذ، بعد تحية الصباح، من الصائم اليوم؟ سارع أحمد يرفع إصبعه ونفسه تذخر بوثوق مطمئن.. فاجأه أن أكثر تلاميذ فصله صائمون، أنعشته بسمة الأستاذ الراضية وكلمته المهنئة لهم بصوته المجلجل: " أحسنتم " !.." ماذا كان سيكون موقفه الآن لو لم يصم؟!.. كان عليه أن يتوارى خجلاً مع القلة الضعيفة التي أخفت رأسها وراء المكاتب والتي نصحها الأستاذ أن تجرب لذة الصيام، ولو لأيام قلائل... ولو ليوم واحد!.. هل كان سيكذب فيرفع إصبعه مع الرافعين؟!.. وكيف لو فعل ذلك.. وهل كان سيرضى عن نفسه لو فعل؛ وهو يوقن أن الله يراه ويعرف أنه مفطر، وكاذب أيضاً ؟! " امتلأ كيانه بدفقة نشاط طردت عن رأسه كل بقية من آثار النوم!

انطوت الحصص الثلاث الباقية حتى فسحة منتصف اليوم. لم يستطع خلالها أن يحتفظ بنشاطه الذي رافقه في الحصة الأولى، ولكنه كان على قدر من اليقظة يملك معه أن يستوعب حديث أستاذه وما يدور في الفصل عدا لحظات قليلة تسلبه إياها خطفات نوم، وعدا انقضاضات جوع متفرقة تناوبته أثناء الحصة الرابعة.. ولكنها الآن تمتد وتتلاحق، يحس أنها تقبض على معدته بيد قوية لا تريد أن تنفك.

* * *

انطلق التلاميذ الصغار إلى الطابق السفلي في طريقهم إلى المطعم، وتزاحم بعض تلاميذ السنوات العليا على (المقصف) في الردهة الواسعة يشترون بعض المأكولات والحلوى!.. عجب من هؤلاء الكبار كيف يرضون ذلك لأنفسهم أمام الناس.. بل أمام الله!... ألا يعرفون أن الله يراهم؟!.. هو أفضل منهم، ولسوف يظل على صومه حتى موعد الإفطار مهما عضه الجوع!

الجوع!. فظيع هو هذا الجوع؛ لم يجربه من قبل بهذه القسوة... يحسه يقضم أمعاءه.. يجوس في داخله لا يوقفه شيء. يغور . يغور في أعماق بطنه.. يحسه يصعد إلى حلقه غثياناً تتقطع منه أنفاسه وتخور منه قواه. كيف يوقف سعاره ذلك؟!..على أقرب منضدة يجلس.. يضغط على بطنه الخاوي بكلتا يديه ويغمض عينيه ويدعو الله أن يرفع عنه شدته. خلسة تتسلل إلى حسه صورة.. يرفضها.. يقاومه بكل ما تبقى من مقاومة، بكل وعيه المتبقي، ولكنها تستمر أمام عينيه المغمضتين. هاهو يقطع الخطوات القليلة إلى (المقصف) .. هاهو يمد يده مشيراً للبائع إلى تلك الحلوى التي اعتاد أن يشتريها والتي طالما تناولها في مثل هذه الساعات أكثر الأيام. هاهو البائع يناوله إياها، ويذهب هو إلى الخزينة ليدفع. هاهي ذي في فمه يقضمها بلذة لا تقاوم!.. لن تراه أمه. لن يراه حسن فيسخر منه.. لن يراه أحد!....

يصحو من حلمه اللذيذ المفزع: " كلا كلا.... لا يكون ذلك أبداً.. إنها هزيمة مخزية!... لسوف يفرح فيه حسن ويلذعه بالكلمات؛ وسوف تعاتبه أمه... كلا.. فهو لم يعد طفلاً صغيراً لا يملك نفسه... إنه الآن كبير في السنة الرابعة هو!.. عزيمته قوية كما قالت أمه. ثم كيف يظن أن أحداً لن يراه؟!.. أليس الله يراه!.

ألم يقسم أنه سيحفظ صيامه وهو يصر على الصوم أمام معارضة أبيه... ألم يقل أمام الجميع أنه قادر على أن يصون صيامه وأقسم بالله على ذلك!"

تراءى له وجه جدته وهي تدافع عنه بالأمس... كيف يواجهها إن أفطر ولم يستطع الصمود هكذا من أول يوم؟!.. لكم هو يحبها ويتعلق قلبه بها، ولكم يحب أن يرضيها!.. كان منذ طفولته المبكرة ينام بين ذراعيها.. كان ذلك حتى قبل أعوام ثلاثة حين انتقل إلى حجرة أخيه أخذت سلوى مكانه... لاتزال كلماتها الهامسة في الليل ودعاؤها الضارع إلى الله كل مساء حتى يأخذها النوم ترن في أذنيه وتمتلئ بها نفسه ويهتز لها قلبه.. كان دعاؤها الذي تلح به على الله هو أن يرضى عنه فيدخله جنته.. أن يحفظهم ويحفظ عليهم دينهم حتى يلقوه وهو راض عنهم... كان دعاؤها يتردد في أذنيه ويضرع به قلبه الصغير دون أن يدرك حقيقة معناه!... الآن تتبين مشاعره الطريق إلى رضاء الله.. أن يغالب

ضعفه وينتصر عليه .. أن يكون صادقاً ولا ينقض وعده. وألا يكذب على الناس والله يراه!

حين دق الجرس لدخول الفصول كانت هجمة الجوع قد بدأت تخف والقبضة القوية التي تقبض على أحشائه قد أخذت طريقها إلى التلاشي! أحس بنشوة الانتصار؛ فهاهوذا قد نجا من أثقل لحظات ضعفه، ولم تغلبه نفسه!. امتلأت روحه اعتدادا وثقة ، أحس أن قامته تعلو، فرفع رأسه ومشى منتصباً نشيطاً إلى فصله...

* * *

حملت حصة اللغة العربية هذا اليوم إلى قلبه دفعة من العزم ومعلومات جديدة زادت من ثقافته وثباته... حدثهم الأستاذ عن الصيام قال لهم إنهم ما زالوا صغاراً لم يفرض عليهم الصيام بعد، ولكن من الخير لهم أن يعرفوا شيئاً عنه، من الخير لهم أن يجربوا عزائمهم وقوة شخصياتهم وصلابة مقاومته بأن يصوموا ولو لأيام قلائل .. قال لهم: إن الصوم ليس فقط الامتناع عن الطعام والشراب ولكنه أيضا الامتناع عن كل عمل قبيح... إنه الامتناع عن الكذب فما أقبح الكذب عند الله... وهو الامتناع عن الاعتداء على حقوق الغير... عن الإساءة للآخرين ولو بكلمة، عن تخريب المرافق العامة التي هي ملك للجميع... عن معصية الوالدين.. عن السباب والتلفظ بقبيح الألفاظ . عن كثير مما اعتاد البعض أن يفعله دون أن يشعر بخطئه.. قال لهم: إن الصيام يردع الإنسان عن الشر وعمل السوء، لأن الصائم يكون قلبه وتفكيره مع الله، فهو لا يصوم إلا له، ولا يتحمل الجوع والعطش، ولا يتنازل عن الكثير من رغائبه إلا من أجل رضاه، وهو حريص دائما على ألا يفقد ثواب صومه بعمل يغضب الله.. ومن أجل ذلك فالله يجزي بالصوم جزاء عظيماً ويضاعف ثوابه أضعافاً كثيرة؛ وإن للجنة باباً واسعاً اسمه "باب الريان" يدخل منه الصائمون فقط، محبة من الله لهم... ثم قال لهم: للصائم فرحتان، فرحة حين يفطر، وفرحة حين يدخله الله الجنة!

كان قلبه يلتقط الكلمات بشغف فتحدث في روحه دوامات نشوة لم يعهدها.. إنه من هؤلاء الذين يحبهم الله فيدخلهم من هذا الباب الواسع إلى الجنة.. أحس أنه يكبر ويكبر... إن شيئاً جميلاً رائعاً يتفتح في داخله... إن الكثير في كيانه يتبدل... ينمو... يتسع.. إنه يجتاز عالمه الصغير إلى عالم آخر منير واسع العلم.. كم سيكون خاسراً لو لم يصم؟!

* * *

حينما انتهى اليوم المدرسي وعاد إلى الدار كان النهار قد أوشك على الرحيل، وكانت الدار تمور بحركة نشيطة مفعمة بالبشر لم يعهدها عند عودته كل يوم... كانت أمه تتنقل في نشاط ومعها السيدة التي تعاونها تنتقلان بين المطبخ وحجرة المائدة تعدان مائدة الإفطار السخية احتفاءً بأول أيام رمضان.. قفزت إلى نفسه فكرة أبهجته.. فهاهو ينتظر الإفطار بفرحة غامرة ولم يتبق غير دقائق قليلة.. فرحة تمحو كل ما عاناه في نهاره من الجوع والعطش والرهق؛ تماماً كما قال لهم الأستاذ: "للصائم فرحتان....." وهو أيضاً سوف يفرح فرحته الثانية حين يدخله الله الجنة!

حين أعلن مدفع الإفطار انتهاء أول أيام الصوم، كانت الأسرة التي لا تلتقي على الطعام إلا لماماً، كانت تجتمع حول المائدة في إشراقة ود لطيفة؛ وكان أحمد الذي يخوض التجربة لأول مرة صامتاً تمور في داخله عشرات المشاعر والفكر وقفزت إلى رأسه كلمات أخيه التي أغاظته.. فهل حقاً صام من أجل السحور.. أليس السحور مبذولاً أمامه لو أفطر طوال اليوم.. وهل يستطيع السحور وحده أن يملأ مشاعره بهذا العالم المشرق الجميل؟!.. فهل يا ترى قد عرف قد أخوه حقيقة صدقه وقوة عزيمته!

أحس أنه يكبر.. يصبح رجلاً.. يمتلئ قلبه باعتداد وثقة.. وبقرب من الله.. وعلى وجهه كانت تنساح ابتسامة راضية تضيئ ملامحه. ■